مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، المجلد ١٩، العدد (٢)، لسنة ٢٠٢٣

College of Basic Education Researchers Journal. ISSN: 7452-1992 *Vol. (19), No.(2), (2023)*

CC BY

تركيب المكان في شعر ابن معصوم المدني

صالح محمد حسن اردیني عثمان سمير يحيى

كلية التربية الأساسية جامعة الموصل

(قدم للنشر في ٧/٧/ ٢٠٢١، قبل للنشر في ٣/٨/ ٢٠٢١)

ملخص البحث:

لأهمية المكان في شعر ابن معصوم المدني ولاسيما ارتباطه بمدح الرسول (ﷺ)، إذ وظف الأمكنة لأجل هذا الغرض، وهذه ميزة لدى الشاعر ربما لا تتوفر عليها شعر غيره من الشعراء مما يوحي بتوجه الشاعر نحو النزعة الإسلامية الصوفية بالتركيز على ذكر المكان المقدس وأنماط متعددة من المكان وتداخلها مع الزمن والشخصية والحدث ورحلاته بين البلاد مما أضفى على شعره سيرة مكانية اعتمدت على تفاصيل وثيقة للمكان وجزئياته.

قام البحث على مدخل وثلاثة مباحث، تضمن المدخل: تحديد مفهوم تركيب المكان في النص الشعري، وخص المبحث الأول لدراسة المكان الأليف/ المكان المعادي، وخص المبحث الثاني لدراسة المكان التاريخي/ المكان الآني، وتضمن المبحث الثالث دراسة المكان الكوني/ المكان المسرحي.

Composition of the Place in the Poetry of Ibn Masoum Al-Madani

Mohammad Salih Erdini Othman Samir Yahya

College Of Basic Education/ University of Mosul

Abstract

Because of the importance of the place in Ibn Masum al-Madani's poetry, especially its connection to the praise of the Messenger (PBUH), as he employed places for this purpose, and this is a feature of the poet that may not be available to the poetry of other poets. Such a feature suggests the poet's orientation towards the Islamic mystical tendency by focusing on mentioning the holy place and multiple types of poetry. The place and its stampede with time, personality, event and his travels between countries, which gave his poetry a spatial biography that relied on close details of the place and its parts.

The research consisted of an introduction and three themes. The introduction included: defining the concept of the place structure in the poetic text, the first theme was devoted to the study of the domestic place/ the hostile place, the second theme was devoted to the study of the historical place/ the immediate place, and the third theme included the study of the cosmic place / theatrical place.

مدخل: تحديد مفهوم تركيب المكان في النص الشعري:

للمكان أبعاد نفسية فضلاً عن وظائفه الفنية وأبعاده الاجتماعية والتاريخية والعقدية التي ترتبط به، لذا تتسع دلالة المكان بهذه السياقات المتعددة[١]، وتكون لعلاقات المكان بعضها ببعض أبعاد رمزية على مستوى الشكل والفنون[٢]، وتتضح أبعاد المكان ويبرز تشكيله من التأثير الاجتماعي والفكري، ويقوم الإنسان بمهمة إعطاء النص الجديد لأبعاد المكان[٣]، لذا يقوم تركيب المكان على مجموعة من الثنائيات المتضادة[٤].

المبحث الأول

المكان الأليف/ المكان المعادي

١- المكان الأليف:

هو "مكان المعيشة المقترنة بالدفء والشعور بأنَّ ثمة حماية لهذا المكان من الخارج المعادي وتهديداته، ويمنح هذا المكان الفسحة للحلم والتذكر[٥]، ويترك هذا المكان أثراً في ساكنيه كأن يكون مكان الطفولة أو مكان الصبا والشباب[٦].

يبدو تركيب المكان فيما عرض الشاعر من أمكنة أليفة تتمثل بالرياض والديار والمدن: نجد والهند والحجاز ومكة والكعبة الطائف والحرم وكربلاء، فضلاً عن مرابع الأنس واللهو والحبيبة.

- الرياض

اهتم الشاعر كثيراً بالرياض بوصفه مكاناً طبيعياً، فضلاً عن أنها مكان أليف، إذ يقول:

ورياضِ بَحْرتها التي فاقت على كـلِّ الرِّيـاضِ بحسـنِها وبطيبِهـا[٧]

---

(١) ينظر: جماليات المكان في مسرح صلاح عبد الصبور، مدحت الجيار، مجلة ألف، العدد (٦) لسنة ١٩٨٦: ٢٨؛ شخصيات قصة يوسف (عليه السلام) في القرآن الكريم، نبهان حسون السعدون، أطروحة دكتوراه: ٢٤٩.

(٢) ينظر: الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، د. إبراهيم جنداري: ١٦٨.

(٣) ينظر: المكان في الرواية، ياسين النصير، مجلة آفاق عربية، العدد (٨) لسنة ١٩٨٠: ٧٨.

(٤) ينظر: نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية، د. نبيلة إبراهيم: ٥٨.

(٥) ينظر: الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا: ٢٣٧.

(٦) ينظر: البناء الفني في الرواية العربية في العراق(الوصف وبناء المكان)، د. شجاع مسلم العاني: ٢٨.

(٧) ديوان ابن معصوم: ٥٥.

يعرض الشاعر الرياض التي تعود للحجاز التي أعجب بها ويجدها من أفضل الرياض في الكون لما وجد فيها من الحسن والطيب والماء والهواء العليل حتى ترابها، لذا يألف الشاعر هذا المكان الذي ارتبط به كثيراً فلا يزال يعدد محاسنها وايجابياتها التي أثرت في النفس الشعور باللذات، إذ يتذكر بهذا المكان أيام الصبا والمخاتلة بين أفراد الرياض ويعيد في ذاكرته أحلام الطفولة وذكريات الماضي الجميل.

ومن ذلك قول الشاعر:

والروضُ بالزهر منضودٌ يروقُ لنا كــأنَّ مجلســاً للصــحبِ مفــروشُ(١)

ويرتبط الشاعر بروض آخر يروق له وأيضاً يعمل على ربطه بأيام الصبا، لذا يتذكره بتفاصيله كلها من حيث الزهر والورد، ويتنعم بالرائحة التي تهب على الرياض، فضلاً عن الطير، ويصف الشاعر بهذا كله المكان الذي ألفه منذ الطفولة وعلق في ذهنه وفكره ونفسه، بل دخل عمق الهامة وروحه التي تشتاق لهذا المجلس الذي يعقد في هذا الروض مجلس الصحبة الجميلة من ماضيه الجميل.

- الديار

ويعود الشاعر من جديد إلى ذكر الديار التي ميزها بالخصوصية لساكنيها، وأصحابها الحبيبة والأصدقاء، أو حتى الذين فارقوها، لذا يلجأ إلى التعبير عن ألفة هذه الأمكنة، إذ يقول:

يا حَبَّذا زمنُ الوصالِ وحبَّذا عهد الحبيب ودارهُ من داري(٢)

يعرض الشاعر أيام عهد الحبيب ليركز على الدار التي أحب، ويتداخل بينها مع داره، إذ يعد داره هي دار الحبيبة التي ألفها وأحبها من أيام الصبا، وتغنى فيها أيام هواه التي رضي عنها قلبه ونفسه وعقله، لذا يعود الشاعر دوماً لذكر تلك الديار التي أثرت في نفسه وروحه ويميل لها دوماً.

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

وأصــبُو إلــى دارٍ بهــا حــطَ أهلُهــا على أنَّهم من أجلها في الحَشا حَطُّو(٣)

---

(١) ديوان ابن معصوم: ٢٥٤.

(٢) م. ن: ١٨٨.

(٣) م. ن: ٢٦٣.

يعرض الشاعر للدار التي يصبو إليها ويألف وجودها وذكرها في النفس والقلب وهي الدار التي أحط أهلها وسكنوا بها، مما يوحي بمدى ارتباط الشاعر بهذا المكان الأليف وحبه له، فضلاً عن مشاعره وأحاسيسه، فهو سيبقى دوماً على عهده والوفاء لهذه الدار، ولما يرتبط بهذه الدار وصاحبتها من الهيام والهوى، لذا يعبر الشاعر عن مدى شعوره بالحب والتعلق بهذا المكان الذي وصل إلى الحشا، وربط الشاعر كل ما هو جميل محبباً إلى نفسه بتلك الدار من حيث أنها مربعة، مما يوحي بحبه وتعلقه بها.

- المدن

تتعدد المدن التي ألفها وزارها الشاعر في حياته ورحلاته وتنقلاته من مكان إلى آخر، كل هذا انعكس على شعره وجعله يوغل في ذكر تلك المدن،ومن ذلك قوله:

بربِّك إن يَمَّمتَ يا صحبي نَجداً فقفْ شارحاً عنِّي الصَّبابة والوَجدا
بنفسي هوى هندٍ على البعد والنوى وإن كنتُ قد أوطنتُ من بَعدِها الهندا(١)

يذكر الشاعر نجد والهند بوصفهما مكانين أليفين إلى قلبه ونفسه، لذا يطلب من صاحبه عند ذكر نجد أن يشرح له أيام الصبا والشباب لما يرتبط هذا المكان في ذهن الشاعر من ذكريات لازالت عالقة في ذهنه، فهو مع الحجاز يهوى صاحبته (هند) على الرغم من بعدها وفراقها عنه، لذا يطلب له العيش الكريم في الهند بوصفها الوطن والمأوى، مما يوحي بمدى ألفة هذا المكان وتعلق روح وقلب الشاعر به. ومن ذلك قوله:

لله أيامي بمكةَ والصَّبا تهري إلى فَواديَّ مسكاً أذفرا(٢)

يعرض الشاعر مكة المكرمة بوصفها ذكرى من ذكريات أيام الصبا، وتعد بالنسبة إليه بمثابة المسك الذي علق في ذهنه ونفسه، مما يوحي بمدى الارتباط الشديد بهذا المكان الذي ألفه القلب ودخل إلى أحشائه حباً لذكره وأيامه، لذا فهو يشتري الدهر كله مقابل ساعة يقضيها في هذا المكان الأليف، مما يوحي بمدى أثره في النفس والروح، لذا يهفو على قلبه إليه على الدوام.

- مربع الأنس واللهو

ومن الأمكنة الأليفة ما جاء في قول الشاعر مربع الأنس واللهو، إذ عبر عن ذلك بقوله:

وتَذَّكرتُ مربع الأنس واللَّهو وعصرَ الصِّبا وعهد البطالهْ(٣)

---

(١) ديوان ابن معصوم: ١٤٨.
(٢) م. ن: ٢٢٢.
(٣) م. ن: ٣٥٣.

يذكر الشاعر مربع الأنس واللهو لعصر الصبا الذي عاشه، لذا يرتبط بهذا المكان بحبه ومشاعره وعواطفه لما له من أثر في النفس أيام الشباب والصبا، يمثل هذا المكان للشاعر الظل الظليل في جزئياته؛ لأنه يرتبط بالهوى وأيام حبه القديمة التي لا تزال عالقة في مخيلة الشاعر.

٢- المكان المعادي:

هو المكان "الذي لا يشعر الإنسان بألفه ما نحوه بل يشعر بالعداء أو الكراهية، وهي أماكن قد يقيم فيها تحت ظرف إجباري كالمنافي والسجون والمعتقلات، أو الأماكن التي توحي بأنها مكامن للموت والطبيعة الخالية من البشر وأماكن الغربة"(١).

يتجسد تركيب المكان بذكر الشاعر لأمكنة العداء إلى نفسه منها السجن والمعسكر واللهيب والهند، فضلاً عن أمكنة أخرى لم يألفها الشاعر.

- السجن

يذكر الشاعر السجن، إذ يقول:

لله مـــن والـــهٍ عـــانٍ بأســـرَته ومِـــن مُحـــبٍّ غـــدا يبكيـــه محبـــوبُ
كأنـهُ يُوسُفُ فـي السِّجنِ مُضطَهداً وكـل ذي خِلَّـة فـي الحَـيِّ يعقـوبُ(٢)

يربط الشاعر المكان المعادي بما يبكي المحب من ألم الفراق والبعد والنوى، إذ شبه ذلك بالسجن، ذلك المكان الذي يحدد من تحرك الإنسان ويضطهد فيه كما حدث مع سيدنا يوسف (عليه السلام)، ومن مظاهر السجن بوصفه مكاناً معادياً انه يتمثل بالحزن والاضطهاد، إذ يربط بين السجن والحي، فكل محب في هذا الحي هو بمثابة يعقوب (عليه السلام) الذي يحن لابنه وهو في السجن، ويحن المحب إلى محبوبته وهو بعيد عنها.

- المعسكر

يذكر الشاعر المعسكر، إذ يقول:

يقومُ فـي حَومـة الهيجاءِ مُنفرداً يـومَ الكفـاحِ مقـامَ العَسكرِ اللَّجـبِ(٣)

---

(١) جماليات المكان، باشلار، ترجمة: غالب هلسا: ٤٥.
(٢) ديوان ابن معصوم: ٧٣.
(٣) م. ن: ٥١.

يربط الشاعر الهيجاء بوصفها مكاناً موحشاً مفتوحاً في النظر، مما يوحي بعدم الألفة والعداء والكره، ولاسيما إذا كان الإنسان لوحده مع المعسكر يوم القتال وإنزال الذي يكره المرء وجوده فيه، وأخذ يعرض الشاعر المكان المعادي الصحراء إذ يشبهها بالمعسكر الذي يكرهه لما يتعرض فيه الإنسان إلى القتل والإصابة أو يطعنه سيف على الرغم من شجاعة المسجون وبطولاته.

- سكان اللهيب

يقول الشاعر ذاكراً اللهيب:

تزيـدُني نُـوَبُ الأيـامِ مكرمـةً كـأنَّني الـذهبُ الإبريـزُ فـي اللَّهـبِ(١)

يعرض الشاعر ما تعرض له في الماضي من النوائب والكوارث، إذ يعمل على تشبيه حاله في تلك المواقف كحال الذهب الذي يكون في اللهب، إذ يركز على موضع اللهب الذي هو العداء بحد ذاته لما فيه من الصعاب التي يواجهها الشاعر من نائبات الأيام التي تعرض لها في حياته من حالات الشك والغبن، مما دعاه إلى تذكر مكان اللهب الذي يعد بمثابة الحد الفاصل بين العداء والألفة.

- الهند

على الرغم من أنَّ الهند هي المكان المحبب الأليف إلى قلب الشاعر ونفسه، إلاّ انه يعد في موقف ما مكاناً معادياً، إذ يقول الشاعر:

أضحى أسيراً بأرضِ الهندِ مغتَرباً لـم يـرجُ مخلَصـه إلاّ إذا شـيتا(٢)

يعبر الشاعر عن الغربة الإنسانية في مكان محدد هو الهند، إذ يتحول هذا المكان من الألفة إلى العداء والكراهية لما يعانيه فيه من مواقف متعددة تجعله يشعر بالغربة على الرغم من ألفة المكان وقربه إلى النفس والروح، لذا يتمثل هذا المكان بحالة النجاة منه، مما يوحي بمدى المعاناة التي لاقاها الشاعر ليصل إلى هذه النتيجة التي تعبر عن كره المكان ونبذه.

- الرقمتان

تتحول الرقمتان في نفس الشاعر إلى مكان معادٍ، إذ يقول:

---

(١) ديوان ابن معصوم: ٥٠.

(٢) م. ن: ٨٦.

فيا عصرَنا بالرَّقمتين الذي خَلا لَـكَ الله جـدباً بـالقُربِ بعـدَ نُـزوحِ[١]

أورد الشـاعر مكـان الـرقمتين وهـو يمثـل للشـاعر مكـان عـداء، فهـو يشـعر فيـه بالفقـد والعذاب النفسي بعد نزوح أهله منه وما عاشه من القلق والحزن والسهر وعدم الراحة وإيقاظ الأحزان وهياج العواطف، لذا جمع الشاعر هذه المشاعر كلها في هذا المكان الذي لم يعد يألفه لما سبب له من المواقف الحزينة في حياته، وهذا كله بسبب بُعد أهل الرقمتين عن المكان.

- بطن التراب

حيث عدَّ الشاعر بطن التراب مكاناً معادياً يذكره على سبيل الربط بحاله، إذ يقول:

وقد سَكَنت عنّا الوشاةُ وأبلِستْ كمـا سكنَتْ بطـنُ التُـرابِ الأسـاودُ[٢]

ابرز الشاعر شعوره بالمعاناة من الوشاة الذين يريدون إيذاء سمعته بين الناس، لذا يربط الشاعر بين ذلك الموقف وموقف سكن الأساود ببطن التراب الذي يمثل ما يعاني منه، لذا يعد هذا المكان بمثابة عداء وكره له، فيعاني الشاعر من تدخل الوشاة في علاقته بالحبيبة وما يشوه هذه السمعة الطيبة.

- الدار

على الرغم من ألفة الدار، إلاّ أنَّ الشاعر في موقف ما يتحول عنه إلى عداء وكره كما في قوله:

يـا حسـرةً لغريـبِ الـدارِ مُضـطهدٍ يلقـى العِـدَى بعديـدِ منــهُ مَكثُــورِ[٣]

يرتبط العداء للدار بالشعور بالاضطهاد وعدم الإنصاف من الأعداء الذي تعرض له الشاعر، لذا يتحول المكان الأليف المحبب إلى نفس الشاعر وهو الدار إلى مكان معادٍ يحمل صفات الكره والنبذ والابتعاد.

المبحث الثاني

المكان التاريخي/ المكان الآني

١- المكان التاريخي:

---

(١) م. ن: ١٢٢.

(٢) ديوان ابن معصوم: ١٥١.

(٣) م. ن: ٢٠٤.

هو المكان الذي "يستحضر لارتباطه بعهد مضى أو لكونه علامة في سياق الزمن[١]، لذا يعبر هذا المكان عن فعل الغير بما يحويه من تاريخ ما[٢]، وتفوح من هذا المكان رائحة القرون والأجيال السالفة للدلالة على الجذور التاريخية للمكان وتحولات المجتمع[٣]. مما يعبر عن "قضية هذا المكان وليس مجرد ارتباط عاطفي أو جغرافي"[٤].

يعرض الشاعر لأنواع من المكان التاريخي يرتبط أغلبه بالمدن التي تعد تاريخية من مثل أم القرى والبيت والكعبة وطيبة وخيبر.

- أم القرى

يذكر الشاعر أم القرى ويقصد مكة، إذ يقول:

حتى أناخَ على أمِ القرى سَحَراً قد نضا الصُّبحُ للظَّلماءِ أصليتا[٥]

تعد مكة مكاناً تاريخياً ارتبط اسمه بالقرى ،إذ تمثل الأم لقداستها وعلو مكانها في الشعور الإنساني، إذ استدعى الشاعر هذا المكان التاريخي العريق مع مدى الرسول محمد (ﷺ) لما لهذا المكان من سحر في النفس، بمثابة المكان الذي يحدد الحس الإيماني الحج إليه، فضلاً عن تذكره النبي المصطفى، مما يرمز للتاريخ الإسلامي العريق.

- البيت

يذكر الشاعر البيت وجزئياته، إذ يقول:

يغبطُها البيتُ وأركانُه وزمزمٌ والحجرُ والمسجِدُ[٦]

عبّر الشاعر عن البيت الحرام بوصفه مكاناً تاريخياً، فذكر دالاته الجزئية التي تمثل ما يرتبط به على مدى التاريخ في الذاكرة المحببة لدى الناس من حيث زمزم والحجر الأسود والمسجد، ومن تلك الصورة والخيال المتكون لدى الناس يعود بهم الزمن إلى سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، وبهذا يمثل ذلك المكان وما حوله من الأشياء إرثاً حضارياً في ذهن الناس وارتباطه بالدين الإسلامي الحنيف وأداء فريضة الحج التي تعد ركناً من الأركان المهمة في الإسلام.

---

(١) حركية الإبداع، د. خالدة سعيد: ٣٠.

(٢) ينظر: إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير: ٨.

(٣) ينظر: الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا: ٢٥٦.

(٤) الرواية والواقع، محمد كامل الخطيب: ٤٠.

(٥) ديوان ابن معصوم: ٨٤.

(٦) م. ن: ١٣٦.

- مكة والكعبة:

يذكر الشاعر المكانين معاً وهو يؤدي فريضة الحج، إذ يقول:

وهَبَّ نسيم القُربِ من نحوَ مكةَ ولاحَ سنى البيت المحرَّم والحَجَرِ[١]

يعرض الشاعر مكة المكرمة التي اقرب النسيم منه لما لها من مكان متميز في نفسه ونفوس المسلمين بوصفها مكاناً تاريخياً يؤرخ للإسلام، فضلاً من جزئياتها القدسية من البيت الحرام والحجر اللتين تعدّان دالتين مهمتين جداً للذي يقصد بيت الله الحرام على مدى التاريخ الإسلامي.

- طيبة

يعرض الشاعر طيبة بوصفها مكاناً تاريخياً، إذ يقول:

ويوَّئَني طَيبةَ مَوطِناً فإنَّها لي سابقاً مولدا[٢]

يعبر الشاعر عن مدى ارتباطه الروحي والنفسي بطيبة، ذلك المكان المقدس المحبب إلى نفسه الذي يعد المكان التاريخي في الإسلام، إذ يرتبط بزيارة الرسول الكريم، لذا يعدها الشاعر بمثابة المولد له والمقصد والغاية التي يطمح إليها، ويميل الشاعر على ذكر المكان التاريخي ليربطه بأحداث الحاضر الذي يعيشه للتعبير عن تقديسه لهذا المكان الذي يألفه كثيراً.

- خيبر

يذكر الشاعر خيبر بوصفها مكاناً تاريخياً، إذ يقول:

سَلْ عن خيبرَ يومَ نازلَهَا تُنبيكَ عن خَبرٍ وعن خُبْرِ[٣]

يداخل الشاعر بين ذكر المكان التاريخي ومدح علي بن أبي طالب (ﷺ) ويتذكر واقعة الخندق ودوره المجير الشجاع فيها، إذ تعد خيبر بمثابة رمز تاريخي لليهود، إذ فتحها الرسول (ﷺ) وأصبحت للمسلمين ولينتشر فيها الإسلام، لذا أورد الشاعر النزال الذي خاضه علي بن أبي طالب (ﷺ) في هذا المكان التاريخي الذي يرتبط ببطولاته وشجاعته العالية للدفاع عن الدين الإسلامي بمبادئه السامية.

٢- المكان الآني:

---

(١) م. ن: ١٧٢.

(٢) ديوان ابن معصوم: ١٣٧.

(٣) م. ن: ١٦٨.

هو المكان الذي تحيا فيه الشخصية/ الراوي في راهنها الذي تتحدث فيه عن الأحداث والمجريات(١).

يتمثل تركيب المكان فيما عرضه الشاعر لأمثلة متعددة من المكان الآني الذي هو عكس المكان التاريخي الثابت من مثل المقر والفلاة المجلس وربوع سلمى.

- **المقر**

أورد الشاعر ذكر المقر في قصيدة له، إذ يقول:

فأصبحَ صَبري راحِلاً عن مَقرّهِ وقد كنتُ أدري أنَّه غيرُ لابثِ(٢)

يعبر الشاعر عن المكان الآني بتشكيل مجازي، عن رحيل مقر الصبر، لذا يعمل على تجسيده كأنه مكان حقيقي، فمقر الصبر الذي لم يلبث في نفس الشاعر ورحل وغدر عنه، فقد تعود الشاعر الصبر على الرغم من رحيله عنه وعن مقره بمثابة رحيل إلى مكان آني ليعود من جديد إلى مكانه الأساس وهو لزوم الصبر.

- **الفلاة**

أورد الشاعر ذكر الفلاة بوصفها مكاناً آنياً، إذ يقول:

في هذه الفَلاةِ إلاّ لخطبٍ عاتِ(٣)

يبدو من الوصف الشعري أنَّ الفلاة ليس هو المكان الأساس وإنما مكان آني اضطرته الظروف والإخوان فيما يتعلق بحكاية الفأر والحمامة تشبيهاً لمعاونة الإخوان في نوائب الزمان، لذا يشكل المكان الآني (الفلاة) مكاناً للخطر الذي يهدده، على عكس المكان الأساس الذي يوحي بالاطمئنان والراحة.

- **المجلس**

يقول الشاعر:

ما ضاع نشر ثنائِها في مجلسٍ إلاّ تَفتَّق عن ذكيِّ العَنبر(٤)

---

(١) ينظر: الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا: ٢٥٨.

(٢) ديوان ابن معصوم: ٩٨.

(٣) ديوان ابن معصوم: ٥٤٩.

(٤) م. ن: ١٨٢.

امتاز المجلس بكونه مكان آني يسعى إليه الشاعر للتذكير به، فهو مكان أليف بالنسبة له، ولكنه بحاجة إليه دوماً، إذ ينتقل فيه من المكان الأساس إليه لأنه نقطة جذب بالنسبة له، فهو مجلس الأب الذي يمدحه دوماً، ويفتخر به، لذا يمثل هذا المكان الذي يتحدث عن مجريات الأحداث وما كان يحدث في ذلك المجلس ويمزج هذا التحدث ذكر صفات والده، لذا لابد من ذكر مجلسه الذي يعد المآل لكل قاصد فهو يعده درجة المعالي والرقي والأخبار الصادقة.

- ربوع سلمى

يقول الشاعر:

مـــالي وللأربـــعُ مـــالم تكُـــن ربـــوعُ سَـــلمى ربَّـــةَ البُرْقِـــعِ

لـم انـسَ عصراً قد تقضَّـى بهـا وجمعَنـــا إذ هـــو لـــم يُصـــدَعِ[١]

يحدد الشاعر المكان الآني الذي تتوق إليه نفسه وروحه ألا وهو ربوع سلمى في زمن محدد هو (عيد النيروز) ووقت محدد من اليوم وهو (العصر)، لذا يمثل هذا المكان الآني مكاناً أليفاً ومحبباً لشاعر فهو يذكره بالحبيبة بعد أن فارقت المكان، مما يعمل على وصل قلبه بهذا المكان الذي شغف به.

المبحث الثالث

المكان الكوني/ المكان المسرحي

١- المكان الكوني:

هو المكان الذي "يظهر الكون من الشمس والقمر والنجوم والكواكب، والطبيعة من المياه والنبات والجبال"[٢]، ويحتاج هذا المكان في تصوره إلى توقد ذهن ودقة في التصوير لاكتشاف العلامات الخفية التي تربط الأدب بهذا المكان[٣].

يبدو المكان الكوني في شعر الشاعر في ذكر القمر والشمس والسُحب والبرق والنجوم والأفق، مما يدل على تركيب المكان.

- القمر

أورد الشاعر ذكر القمر بوصفه مكاناً كونياً، إذ يقول:

---

(١) م. ن: ٦١٨.

(٢) الشكل القصصي في القرآن الكريم: دراسة جمالية، د. نبهان حسون السعدون، رسالة ماجستير، بإشراف: إبراهيم جنداري، كلية الآداب/ جامعة الموصل، ١٩٩٩: ١٣٤.

(٣) ينظر: الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي، بومدين كروم، رسالة ماجستير: ٨٣.

من كلِّ واضحة الجَبينِ كأنها قمرٌ يُنيرُ من الفُروعِ غياهبا(١)

والقمرُ انشقَ لـه طائعاً وراحَ بالطاعةِ يُسْتَسعَدُ(٢)

كم فيهمُ كريمٍ زانهُ شَمَمٌ تغنيكَ غرَّتُهُ عن طلعةِ القَمرِ(٣)

يداخل الشاعر ذكر القمر مع الحبيبة من حيث تشبيهها بهذا المكان الذي ينير الظلام ويعكس الشاعر مدلولات القمر في مدح النبي محمد (ﷺ) من حيث طاعة القمر لهذا الممدوح، ومن ثم مدح الوالد الذي يشبه كرمه بطلعة القمر، لذا يقدم الشاعر القمر بوصفه مكاناً كونياً وليشبه الشخصيات الحية به، ولا يكتفي الشاعر بذكر القمر وإنما يصف البدر، إذ يقول:

قاسُوهُ بالبدرِ في ظلماءِ طُرَّته والفرقُ يظهرُ مثلّ الصبحِ واضحُهُ(٤)

وأضاءت في غَيْهبِ الشعر الوصـ ف فأزرتْ بالبدرِ في الظلماءِ(٥)

في فتيةٍ يتجلَّى بينهم مَرَحاً كأنَّه البدرُ بين الأنجمِ الشُّهبِ(٦)

يداخل الشاعر ذكر البدر مع مدح النبي محمد (ﷺ)، إذ يوضح صورته بأنه البدر في الظلماء، فيكون بمثابة الصبح في صورة الليل، في حين يصفه بالنور الذي يظهر في الظلماء فيكون بمثابة النور الذي يُهتدى به، ويجعل الشاعر من وصف والده كالبدر بين الأنجم للإيحاء بشخصه الذي يتجلى على الجميع بصفاته وكرمه وشجاعته.

- **الشمس**

يكثر الشاعر من وصف الشمس بوصفها مكاناً كونياً في مدح والده، إذ يقول:

تُغانُ لها ريحُ الصَّبا إن تنفَّست وللشمسِ تَغضيضٌ عليها وتذهيبُ(٧)

يداخل الشاعر في وصف المكان الكوني مع المديح الذي يتحدث فيه عن المجد والنسب، إذ تفان لها الريح ويحددها بربع الصبا للإيحاء بذكريات الأفعال المشرفة، ومن ثم أثر

---

(١) ديوان ابن معصوم: ٦٦.

(٢) م. ن: ١٣٦.

(٣) م. ن: ١٧٧.

(٤) م. ن: ١١٢.

(٥) ديوان ابن معصوم: ٣٧.

(٦) م. ن: ٤٩.

(٧) م. ن: ٥٣.

الشمس التي تعمل على الإفاضة عليها والترهيب من اشراقة الشمس اللامعة التي توحي باشراقة المواقف والمهام التي أرادها والده تجاه القوم ليصل إلى ارفع درجات المجد والعلى.

ويذكر الشاعر الشمس في موضوع المدح، إذ يقول:

والشمسُ قد نهضَتْ لمشرقها فانهضْ بشمسكَ أيُّها البدرُ(١)

وصف الشاعر المكان الكوني الذي تمثل بالشمس في هذا البيت وبالإشارة إلى وقت شروقها الذي لابد له من الشمس عنواناً لنهوضه بالأفعال والمواقف لأنه البدر فلابد من أن يشفع بها ليبدأ عمله، ويصف الشاعر الشمس في موضع مدح النبي محمد (ﷺ)، إذ يقول:

والشمسُ إذْ أفَلَتْ لمن رَجَعتْ كيما يُقِيمَ فريضةَ العَصرِ(٢)

يعمل الشاعر على تقديم المكان الذي يتمثل بالكون من حيث أُفول الشمس ليداخلها مع أداء فريضة صلاة العصر للنبي محمد (ﷺ) وبهذا يضيف على الحساب المكان الكوني حساً إيحائياً يتجلى في أداء الصلاة.

- السُحُب

يذكر الشاعر السُحب بوصفها مكاناً كونياً ضمن ما يوثقه عن سيرته الذاتية من تفاؤله بالنجاة من البحر إلى الحرمين الشريفين وهو ينطلق من الهند، إذ يقول:

وإن ضُنَّ بالغيثِ السحابُ تهلَّلت سحائبُ عَشْرٍ من أنامِله العَشرِ(٣)

يداخل الشاعر ذكر السحاب مع مدح النبي محمد (ﷺ) الذي يجعلها متهللة، مع السحب الأخرى من ضمن الغيث، ولا يكتفي الشاعر بذلك وإنما كون هذا التهليل من حيث أنامله العشر وكأنه هو الذي سيغيث هذا المنظر البهي. ويصف الشاعر السُحب مع مدحه لأبيه، إذ يقول:

برقَ الحيِّ لاحَ مجتازاً على الكُثبِ وراحَ يسحبُ أذيالاً من السُحُبِ(٤)

يأتي ذكر السحاب بوصفه مكاناً كونياً في الحديث على رحلة الوالد في الليل وكأنه سحب مع حركته أذيالاً من السحب دلالة على أنَّ لسعي الوالد للتمييز لأنه السحاب رمز للتميز

---

(١) م. ن: ٢٠٠.

(٢) م. ن: ١٦٨.

(٣) ديوان ابن معصوم: ١٧٣.

(٤) م. ن: ٤٩.

بوصفها التي تعمل على إنزال المطر، فالماء هو الخير، الذي يأتي عن طريق المطر الذي تسبغه السحابة، فهكذا الوالد أفعاله الخير كلها.

ويداخل الشاعر السحب مع رثاء الحسين بن علي (عليه السلام)، إذ يقول:

علـيكُم صـلواتُ اللهِ مـا هَطَلَـتْ سحبٌ وشقَّ وميضٌ قلبٌ دَيْجُور(١)

يربط الشاعر هطول السحاب ذلك المكان الكوني الذي يدل على الخير برثاء الحسين (عليه السلام) لتكون الصلاة عليه بقدر ما يهطل من المطر للتعبير عن الحزن الذي ألّم بقلبه من هذه الذكرى الأليمة. ويذكر الشاعر الغمامة، إذ يقول:

إذا عَنَّ ذكراكمُ لـهُ فـاضَ جَفنُـهُ بأدمُعِـهِ فـيضَ الغمامـةِ بـالقَطرِ(٢)

يربط الشاعر بين الغمامة بوصفها مكاناً كونياً بمنح الخير في سقوط المطر، مع الأهل والإخوان إذا ذكرهم، فينطلق الجفن بالدمع كما تفيض الغمامة بالمطر للتعبير عن الشوق لرؤيتهم.

- البرق

ولو أنَّ البرق هو ظاهرة كونية ولكن عندما يحدث البرق يكون بمكان محدد في السماء، لذا يعمل الشاعر على ذكره وارتباطه بالغيث الوابل، إذ يقول:

والبـرقُ شـقَّ بمرجهـا طربـاً جيـبَ الحَيـا فتبَّسـم الزَّهـرُ(٣)

يربط الشاعر البرق بأثره مع الروضة على سبيل المجاز، إذ عمل على إطرابها، مما أدى إلى تبسم الزهر، ومع أنَّ الشاعر يذكر البرق بأنه قد شق مروج الروض إلاّ أنه يوحي بمكانه وفعله في موجودات الأرض. ومن ذكر ما يرتبط بالبرق الغيث، إذ يقول:

والغيـــثُ يســـكبُ دمعَـــهُ والزَّهـــرُ مفتَّـــر الثُغـــورِ(٤)

---

(١) م. ن: ٢٠٦.

(٢) م. ن: ١٨٩.

(٣) ديوان ابن معصوم: ٢٠١.

(٤) م. ن: ١٩٧.

يداخل الشاعر بين الغيث الذي يمثل مكاناً من السماء إلى الأرض بالسقوط من السحاب مع الروضة، إذ يشبه الشاعر المطر بالدمع ليكون الزهر فتح الثغور، مما يتوافق مع هذا الفعل الكوني في اليوم المطير على الروضة مع مشاركة الربع للمشهد.

ومن ذكر ما يرتبط بالبرق الوابل، إذ يقول الشاعر:

مـولى إذا حـلَّ محتـاجٌ بسـاحَتِه أغنــاهُ نائلــهُ عــن وابــلٍ سَــرِبِ[١]

يـداخل الشـاعر ذكـر الوابـل وحركتـه مـن السـماء إلـى الأرض بـالمطر مـع أبيـه، إذ يشـبه مسـاعدته للمحتـاج بالوابـل مـن المطـر الـذي ينـتج الخيـر الكثيـر، لـذا يشـابه عطـاء الأب، ويغنـي المحتـاج بالمـال ليغنيـه عن الحاجـة والسؤال، وبمـا أنَّ الوابـل يحيـي الأرض ويمـدها بمـا يكفيهـا مـن المطر.

- النجوم

يذكر الشاعر النجوم، إذ يقول:

إذا تجلَّت بشمس الرَّاح راحتُهُ ودَّت نجـومُ الـدَّياجي تُصـافحهُ[٢]

يداخل الشاعر النجوم بوصفها مكاناً كونياً مع مدح النبي محمد (ﷺ)، إذ يجد أنَّ تجلي شمس الراح راحته ما يجعل النجوم في الليالي الظلماء تود أن تصافح راحة النبي (ﷺ)، وبذلك يوحي الشاعر بأنَّ النجوم بعيدة عن الأرض ويكون ظهورها في الظلام، مما يوحي بأنها مكان كوني في السماء، وعلى سبيل المجاز تريد أن تصافح يد النبي (ﷺ) في الأرض.

ومن ذكر النجوم أيضاً قول الشاعر:

ولقَّنـــه إيَّـــاه بعـــدُ منجَّمـــاً نُجُومـاً تُضـيءُ الأفـقَ كـالأنجمِ الزُّهـرِ[٣]

يداخل الشاعر وصف النجوم مع مميزات القرآن الكريم الذي نزل منجماً على النبي (ﷺ)، إذ يشبهه بالنجوم التي في السماء التي تعمل على إضاءة الأفق، فكذلك آيات القرآن الكريم تصفي قلب المسلم وتدخل البهجة والسرور إلى روحه ونفسه، فعلو وتفضل النجوم بإضاءة الطريق للسالك في الظلام.

- الأفق

---

(١) م. ن: ٥٠.

(٢) م. ن: ١١٢.

(٣) ديوان ابن معصوم: ١٧٣.

ويبدو الأفق في نصوص الشاعر التي تتعلق بالمنزل، إذ يقول:

قد كادَ يَحكيك لولا الفِرقُ لاحَ لنا بدرُ التمامِ وشمسُ الأفْقِ في البَلَجِ[١]

يربط الشاعر (الأفق) ولاسيما شمسه بعدم فراق الحبيبة، إذ يوحي بذلك وجود الأفق في السماء مع الشمس والبدر، لذا يقدم الشاعر ظاهرة توجد فيها الأمكنة الكونية (البدر، والأفق، والشمس) ولكنه يقصد من ذلك الأفق الذي يعبر عن عمق الشاعر والأحاسيس التي يكنها للحبيبة التي فارقته. ويربط الشاعر الأفق مع مجموعة من الأمكنة الكونية، إذ يقول:

ولقَّنـــهُ إيّـــاهُ بعـــدُ منجمـــاً نُجُومـاً تضـيءُ الأفـق كـالأنجمِ الزُّهـرِ[٢]

ويبدو الأفق بوصفه مكاناً كونياً ويشبه القرآن الكريم به ويداخل الشاعر فيه النجوم التي تضيء، إذ يعرض الشاعر الأفق والنجوم، وفيما سبق في النص السابق عرضها مع الشمس والبدر.

ومن ذلك قول الشاعر:

أما وابتسامُ الرَّوضِ عن شَنبِ الزهرِ وإسـفارِ وجـهِ الأفـقِ عـن غُـرَّةِ الفَجـرِ[٣]

يداخل الشاعر وصف الأفق مع قصيدة غزلية، ويربط معه أمكنة متعددة منها المكان الطبيعي (الروض والزهر) ومنها المكان الكوني(الفجر) من حيث مظهره، لذا يقدم الشاعر الأفق بمشهد وصفي يعبر فيه عن الغزل بالحبيبة، إذ جمع جمال الأفق عند الفجر مع جمال وجه الحبيبة.

٢- المكان المسرحي:

هو "مكان الاستكشاف لتجتمع إمكانياته وحدوده، فهو يستكشف أبعاده، ويستخدم الاتجاه الأفقي كما يستخدم العمق إن وجد"[٤]، فهو المكان الذي يتحدد بالأبعاد ولكنه يوحي بالحدث[٥]، لذا يكون معقداً إلى حد ما "لاشتماله على مكان محسوس تتحرك فيه الشخصيات فإنه مكان

---

(١) م. ن: ١٠٣.

(٢) م. ن: ١٧٣.

(٣) م. ن: ٢٠٨.

(٤) مفهوم المكان في المسرح المعاصر، سامية أحمد اسعد، مجلة عالم الفكر، العدد (٤) لسنة ١٩٨٥: ٣٢.

(٥) ينظر: بناء الرواية، أدوين موير، ترجمة: إبراهيم الصيرفي: ٥٦.

يضم بين جوانبه كل العلاقات الحقيقية الضمنية بين هذه الشخصيات"[١]. وبذلك يحتاج لتقديمه عرض صورة واضحة تلخص أحداث الأفعال الإنسانية[٢].

يبدو الشاعر من تركيب المكان بذكر أمكنة مسرحية من مثل الهند والحجاز، على الرغم من أنها أمكنة صناعية أليفة إلى نفس الشاعر.

- الهند

لقد ذكر الشاعر الهند كثيراً في نصوصه بوصفها مكاناً صناعياً أو مكاناً أليفاً، ولكنه في نصوص أخرى يذكرها بوصفها مكاناً مسرحياً من دون أية تفاصيل، ومن ذلك قوله:

أدنـــهِ منـــكَ جـــواراً فلقـــد ضـاقَ واللهِ بـه فـي الهنـدِ فَسْـحُ[٣]

يذكر الشاعر الهند بوصفها مكاناً مسرحياً لا يذكر عنه أي تفصيل أو أي وصف، وإنما يعرضه بذكر اسمه فحسب، ليدل به على عدم الارتياح فيه، وعدم وجود أية فسحة، مما جعل الهند مكاناً في النفس، لذا يعمل الشاعر على جعل الهند مكاناً مسرحياً ويوحي بالأحداث في الطيف.

ومن ذلك قول الشاعر:

أضحى غريباً بأرضِ الهندِ ليسَ لـهُ ســـوى تفكـــرهِ خِـــلٌّ يطارحـــهُ[٤]

يوحي الشاعر بوجود الهند في أرضها بشكل عام، ولكن يرفق هذا المكان بالشعور بالقربة والتذكير المستمر الذي تحول إلى الصديق، وبذلك لم يصف الهند بأية أوصاف تفصيلية أو إسهاب في الحديث عنه ليكون بذلك مكاناً مسرحياً يوحي بالأحداث التي يريدها الشاعر من مشاعر الغربة.

- الحجاز

على الرغم من عرض الشاعر للحجاز بوصفها مكاناً صناعياً أليفاً يحبه كثيرا، إلاّ انه في بعض النصوص جعله مكاناً مسرحياً، إذ يقول:

مـا عنَّ لـي ذكـر الحجـاز وأهلـهُ إلاّ عـــدمتُ تجلُّـــدي وقَـــراري[٥]

---

(١) الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا: ٢٦١.

(٢) ينظر: فن القصة، د. محمد يوسف نجم: ١٨.

(٣) ديوان ابن معصوم: ١١١.

(٤) م. ن: ١١٢.

(٥) ديوان ابن معصوم: ١٨٨.

يذكر الشاعر الحجاز من حيث أهله، للإيحاء بالأحداث التي تجري؛ ولكن من دون أية تفصيلات، ليدل بذلك على ذكرياته التي تمر بخاطره التي تجعل منه لا يصبر وينحو نحو عدم التجلد واتخاذ القرار لما للحجاز وأهلها من مكانة كبيرة في نفسه.

- مكة

تعد مكة المكان الأليف والجاذب للشاعر إلاّ انه يذكره بوصفه مكاناً مسرحياً، إذ يقول:

قسماً بمكةَ والحطيمِ وزمزمِ والبيت ذي الأركانِ والأَستارِ(١)

على الرغم من ذكر الشاعر لمكة مع جزئياتها الحطيم وزمزم والبيت، إلاّ انه يوحي بالأحداث التي عرض فيها من الحج والعمرة للإيحاء بمدى فعاليته في النفس الإنسانية المسلمة.

الخاتمة

بعد الانتهاء من الدراسة التحليلية لتركيب للمكان في شعر ابن معصوم المدني، وصل البحث إلى النتائج الآتية:

- عمل الشاعر على تركيب المكان على وفق الثنائيات الضدية التي تدل على التقابل المكاني بين دالاته، إذ يبدو تركيب المكان على وفق الألفة من حيث الرياض والديار والمدن ونجد والحجاز ومكة والطائف والحرم وكربلاء، فضلاً عن مراتع الأنس واللهو وأمكنة السير للتعبير عن ذكريات الماضي التي اقترنت بأمكنة أليفة محببة إلى النفس، وعلى عكس ذلك يصف الشاعر أمكنة معادية من مثل السجن والمعسكر واللهيب للتعبير عن نفوره وعدم الشعور بالراحة والأمان.
- عمل الشاعر على استدعاء أمكنة تاريخية وهو يتحدث عنها في الزمن الحاضر مع ذكريات الماضي من مثل أم القرى والبيت والكعبة وطيبة وخيبر، ليدل بها على عراقة التاريخ والجذور السامية، ومن ثم يذكر الشاعر أمكنة تحول فيها تحولاً سريعاً ومن ثم العودة إلى المكان الأصيل من مثل المقر والفلاة والمجلس وربوع الحمى، ويهتم الشاعر بالطبيعة والكون ليعرض في رحلاته أمكنة متعددة من المكان الكوني: مثل القمر والشمس والسحب والنجوم والأفق، فضلاً عن أمكنة مسرحية يرمز لها ليوحي للسامع وللقاريء بأهميتها في نفسه من مثل الهند والحجاز على الرغم من أنها أمكنة قريبة إلى نفس الشاعر.

---

(١) م. ن: ١٨٨.

المصادر والمراجع

- **المصادر**
  - ديوان ابن معصوم، تحقيق: شاكر هادي شكر، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٨.
- **المراجع:**

١- الكتب العربية والمترجمة:

- إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ١٩٨٦.
- بناء الرواية، أدوين موير، ترجمة: إبراهيم الصيرفي، دار الجيل للطباعة، القاهرة، ١٩٦٥.
- البناء الفني في الروية العربية في العراق (الوصف وبناء المكان)، د. شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٤.
- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٨.
- حركة الإبداع، د. خالد سعيد، دار العودة، ط١، بيروت، ١٩٨٢.
- الرواية والواقع، حسن كامل الخطيب، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨١.
- الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، د. إبراهيم جنداري، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ٢٠٠٠.
- فن القصة، د. محمد يوسف نجم، دار الثقافة، ط٧، بيروت، ١٩٧٩.
- نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية، د. نبيلة إبراهيم، مطابع الفرزدق السعودية، ١٩٨٠.

٢- البحوث المنشورة في الدوريات:

- جماليات المكان في مسرح صلاح عبد الصبور، مدحت الجيار، مجلة ألف، القاهرة، العدد (٦) لسنة ١٩٨٦.
- مفهوم المكان في المسرح المعاصر، سامية أحمد سعيد، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد (٤) لسنة ١٩٨٥.

- المكان في الرواية العربية، د. ياسين النصير، مجلة آفاق عربية، بغداد، العدد (٨) لسنة ١٩٨٠.

٣- الرسائل والاطاريح الجامعية:

- شخصيات قصة يوسف (عليه السلام) في القرآن الكريم، دراسة تحليلية، نبهان حسون السعدون، أطروحة دكتوراه، بإشراف: د. إبراهيم جنداري، مجلة كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٣.
- الشكل القصصي في القرآن الكريم: دراسة جمالية، نبهان حسون السعدون، رسالة ماجستير، بإشراف: د. إبراهيم جنداري جمعة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٩.
- الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي، يومدين كرم، رسالة ماجستير، بإشراف: د. عمر موسى باشا، كلية الآداب، جامعة دمشق، ١٩٨٣.